ضَوَابِطٌ أَخْلاقِيِّةٌ لأدَبِ الإِنْشِقَاق

الأحد 14 أبريل 2013 12:04 م

د. حمدي شعيب

موقف صادم نتـذكره كثيراً هذه الأيام بظلاله ورسائله؛ والذي جاء عندما تصاعدت اختبارات المحنة على كعب بن مالك رضـي الله عنه؛ لتصل إلى أخطرها: "قال فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشأم ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينـة يقول من يـدل على كعب بن مالـك فطفق الناس يشـيرون له حتى إذا جاءني دفع إلي كتاباً من ملك غسان فإذا فيه أما بعـد فإنه قـد بلغني أن صاحبك قـد جفاك ولم يجعلك الله بـدار هوان ولا مضـيعة فالحق بنا نواسك. فقلت لما قرأتها وهذا أيضاً من البلاء فتيممت بها التنور فسجرته". [متفق عليه]

لقـد كان أقسـى اختبار على يد فلاح من الشام؛ وقـد جاء برسالـة خاصـة، ومحاولة خارجية للاختراق؛ أو كما يقولون للصيد في الماء العكر؛ أو كأنها طعم يصطادون به رجلاً من خيرة هذا الجيل الفريد!؟.

وكانت دعوة للهجرة الخارجية، والتخلص من قسوة المقاطعة المجتمعية!؟.

ترى ما هي الرسائل التربويـة؛ التي بعثها إلينا كعب رضـي الله عنه؛ ونستشـعرها من خلال موقفه، وصـموده الشامخ أمام هذه المحاولة:

1-إن الإنسان العاقل عندما تصـله مثل تلك الدعوات؛ لا ينبغي أن يسـيل لعابه لها؛ فيستجيب معالجاً خطأً بخطأ أفدح؛ وهو الانقلاب على مجتمعه!؟.

ويدرك أنها ابتلاء يجب عليه أن يتحصن ضده؛ ويستفيد من تجربته مع الأخطاء!؟.

2-إنها فضيحة علنية أن يأتي هذا الرسول ويسأل الناس في الأسواق عن كعب رضي الله عنه!؟.

وكأنه حاول تفجير حالة من الشماتة؛ أنه وجد فرصة للنيل من الصف المؤمن!؟.

3-تدبر التصرف الحاسم من كعب بحرق الرسالة المشؤومة!؟.

لا تتردد في التخلص مما بحوزتك؛ من ذيول وأسباب قد تؤثر على صمودك أو قراراتك!؟.

4-إذا وصـلتك مثل هـذه الـدعوات والمحاولات الاختراقيـة؛ فاعلم أنما هي إشارة تحذير لا يراها إلا إنسان حكيم؛ وإنما تدل على خلل داخلي في بوصلتك النفسية الذاتية؛ وهي أنك قد هنت على الله عز وجل، فعصيته؛ فهنت على الناس؛ حتى استضـعفوك، واسـتهانوا بك وبموقفك؛ ووجدوك فرصة؛ ظاهرها مواساتك ومعاونتك؛ ولكن باطنها محاولة لإسـقاطك بعد هذا الصعود الراقي في التوبة والأوبة!؟.

نحو ضَوَابِطٌ أَخْلاقِيِّةٌ لأدَبِ الإِنْشِقَاق:

نتذكر هذه الموقف برسائله؛ ونحن نطالع يومياً هذا السـيل من والشوارد الذين انشـقوا عن جماعاتهم وانفصـلوا عن أحزابهم، وانقلبوا على أحباب الأمس، وثاروا على رفقاء الدرب.

وكثرتهم لا تعنينا؛ لأنها تدل على أن البعض رأي أنه لا يطيق الاختلاف مع صحبته وجماعته فآثر الانفصال.

ولكن سـلوك البعض منهم جعلنا كما نصـحنا أنفسـنا وإياهم بأدب الاختلاف؛ فإننا نجـد من الضـروري أن نتذاكر جميعاً ونتناصح معاً بآداب وضوابط الانشقاق لكل الشوارد؛ والتي من أهمها:

1-امتلك البوصلة:

أي يكون داخلنا فراسـة كعب رضـي الله عنه وبوصـلته التي تستشـعر الفتن وهي مقبلـة، وتنذر بالخطر المحدق قبل وقوعه.

فكما قيل: أن العالم يرى الفتن وهي مقبلة، بينما الجاهل يراها وهي مدبرة.

ونتـذكر دومـاً: "سَتَكُونُ فِتَنٌ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْقَـائِمِ، وَالْقَـائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنْ السَّاعِي، وَمَنْ يُشْرِفْ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ، وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ". [البخاري ومسلم]

2-كُفَّ هذا ... ولا تَكُبَّ نفسك:

فلقـد تألمنا من شـهوة الكلام التي أصابت البعض فأخـذ يتنقل بين الفضائيات والمنتـديات ويطعن في رفقاء ماضـيه وأحباء مسيرته.

فإذا لم يرتـدع من أنه يؤذي محبيه؛ فليخش هذا التحذير الذي جاء في حديث معاذ مرفوعا: "وهل يكب الناس في النار على وجوههم الا حصائد ألسنتهم". [أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة]

3-الفارس ... لا يحرق صوره:

الأزمات مدرسـة إيجابيـة؛ رغم قسوتها كما جاء في خلاصـة (مديرون مخادعون): (لِلأَزَمَاتُ جَانِبٌ إِيجَابِيٌ؛ فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا تُوقِعُ الْقَادَةَ فِي الأَخْطَاءِ وَتُضَيِّقُ خَوْلَهُمُ الْخِنَاقَ فَإِنَّهَا تَزِيدَهُم حِنْكَةً وَفَاعِلِيَّةً).

كما أنها اختبار لكشف معادن الفروسية داخل كل منا.

فهناك من يترفع؛ فيسمو فوق محاولات الآخرين لاستقطابه، ولطعن رفاق الأمس.

ولكن هنـاك من يحرق صوره؛ كما جاء في المثل الصـيني: (مَنْ يُضَحِّي بِضَمِيرِهِ لِيُحَقِّقَ طُمُوحَاتِهِ؛ كَمَنْ يَحْرِقُ صُوَرَهُ لِيَحْصُلَ عَلَى الْرَّمَاد).

4-لا تتاجر بتاريخك:

لقـد عشـت دهراً بيـن مريـدين أحبـوك، وأصـحاب قـدروك؛ فليس من الكياسـة أن تكـون ضـمن الـذين يخونـون أمـانة المجالس؛ فيتاجرون بتاريخهم وتاريخ من أئتمنوك.

فـكم من أناس يخوضون في أسـرار من أئتمنوهم؛ ونسوا أن: "الْمَجَالِسُ بِالْأَمَانَـةِ إِلَّا ثَلَاثَةَ مَجَالِسَ سَفْكُ دَمٍ حَرَامٍ أَوْ فَرْجُ حَرَامٍ أَوِ اقْتِطَاعُ مَالٍ بِغَيْرِ حَقٍّ". [أبو داوود]

5-لا تضيع رصيدك:

وتـدبر هـذه الكلمات الرقيقة المعبرة، والذكية الجامعة؛ وهذا الحوار الزوجي الراقي الحاني الشـفوق؛ والذي ورد عن الحبيب صـلى الله عليه وسـلم؛ عنـدما رأى الملـك في غـار حراء للمرة الأـولى؛ فرجع (رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ترجف بوادره؛ حتى دخل على خديجة فقال: "زملوني، زملوني"!!!.

ثم قال لخديجة: أي خديجة ما لي؟!.

وأخبرها الخبر، قال: "لقد خشيت على نفسي!!!".

قالت له خديجـة: كلا أبشـر فوالله لا يخزيك الله أبـداً؛ والله إنك لتصل الرحم، وتصـدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسـب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق". ". [متفق عليه]

إنها من أجمل اللمسات التربوية في العلاقات الإنسانية!.

وهي كذلك مفردات تصف ذلك الرصيد الاجتماعي الاستثماري الخيري؛ الذي ينفع صاحبه في هذه اللحظات!.

وأنت أيضاً لك رصيد في قلوب محبيك ومن تربوا على يديك ومن أحبوا طريق الخير بعلاقاتهم بك.

فإذا سمحت لنفسك أن تدمر هذا الرصيد؛ فمحبيك لن يسمحوا لك لأنه رصيدك ورصيدهم كذلك.

6-لا ترفع هذا اللواء:

حـتى وإن كنت محقـاً في الشـكوى من آلاـم جراحاتـك، ومن قسـوة رفقـاء الأـمس؛ فلتخش من أن تكـون من ضـمن حاملي هذا اللواء: "لكل غادر لواء يوم القيامة، قال أحدهما: ينصب، وقال الآخر: يرى يوم القيامة، يعرف به". [البخاري]

7-تفرس فيمن حولك:

لقـد ورد في محنة كعب رضـي الله عنه؛ أنه كان صـراعه وألمه أنه وجد نفسه تسـقط وتهبط إلى مسـتوى لم يعهده؛ فارتفع بنفسه أن تتساوى مع خليط يهبط به ويثبطه، وهم نفر من القاعـدين إما منافق أو صاحب عـذر: "فكنت إذا خرجت في النـاس بعـد خروج رسول الله صـلى الله عليه وسـلم فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء". [البخاري]

فتـذكر صـحبة سابقـة لها أخلاقيات سامية وإن أخطأت، ولها غايات وأن قصـرت، وقارن بينها وبين صـحبة تحيط بك الآن؛ لها أغراض لا تخفى عليك، وينتقمون من آخرين بك؛ فيهبطون بنفسك وبتاريخك، ويثبطونك عن تحقيق أفكار عشـت لها عقوداً!.

8-لا تحرق سفنك:

دومـاً كن حصـيفاً كعهـدنا بـك، واجعـل لك رجعـة، ولا تقطع كل حبال الود، واسـتبق سـفينة ترجع بها إلى مرساك، أو لتبحر بك إلى مرسى تختاره بنفسك.

فلا تحرق كل سفنك!؟.

9-كن حراً ... مع قومك وأهلك:

هكذا تكون أخلاقيات الفارس التي تحفظ الوفاء لأهله.

وكن حراً؛ كما قال الشافعي رحمه الله: (الحر من راعى وداد لحظة، أو انتمى لمن أفاده لفظة).

ولا تنس الوفاء لقومك وأهلك؛ حتى وإن ظلموا؛ كما قال الشاعر:

بلدي وإن جارت عليَّ عزيزةٌ ... وأهلي وإن ضنُّوا عليَّ كِرامُ

زميل الجمعية الكندية لطب الأطفال (CPS)

عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية

E-Mail: hamdy_shoaib@hotmail.com